تفسير ابن كثير

يقول تعالى آمرا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلّم من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات ومتهددا لهم إن لم يفعلوا بقوله : { من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها } قال بعضهم : معناه من قبل أن نطمس وجوها فطمسها هو ردها إلى الأدبار وجعل أبصارهم من ورائهم ويحمتل أن يكون المراد : من قبل أن نطمس وجوها فلا نبقي لها سمعا ولا بصرا ولا أثرا ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار قال العوفي عن ابن عباس في الاية وهي { من قبل أن نطمس وجوها } وطمسها أن تعمى { فنردها على أدبارها } يقول : نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى ونجعل لأحدهم عينين من قفاه وكذا قال قتادة وعطية العوفي وهذا أبلغ في العقوبة والنكال وهو مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبل الضلالة يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم وهذا كما قال بعضهم في قوله { إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سدا } الاية : إن هذا مثل ضربه الله لهم في ضلالهم ومنعهم عن الهدى قال مجاهد : من قبل أن نطمس وجوها يقول : عن صراط الحق فنردها على أدبارها أي في الضلال قال ابن أبي حاتم : وروي عن ابن عباس والحسن نحو هذا قال السدي : فنردها على أدبارها فنمنعها عن الحق قال : نرجعها كفارا ونردهم قردة وقال ابن زيد : نردهم إلى بلاد الشام من أرض الحجاز وقد ذكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الاية قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا جابر بن نوح عن عيسى بن المغيرة قال : تذاكرنا عند إبراهيم إسلام كعب فقال : أسلم كعب زمان عمر أقبل وهو يريد بيت المقدس فمر على المدينة فخرج إليه عمر فقال : يا كعب أسلم فقال : ألستم تقرأون في كتابكم { مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا } وأنا قد حملت التوراة قال : فتركه عمر ثم خرج حتى انتهى إلى حمص فسمع رجلا من أهلها حزينا وهو يقول : { يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها } الاية قال كعب : يا رب أسلمت مخافة أن تصيبه هذه الاية ثم رجع فأتى أهله في اليمن ثم جاء بهم مسلمين وقد رواه ابن أبي حاتم بلفظ آخر من وجه آخر فقال : حدثنا أبي حدثنا ابن نفيل حدثنا عمرو بن واقد عن يونس بن حلبس عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني قال : كان أبو مسلم الجليلي معلم كعب وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : فبعثه إليه لينظر أهو هو ؟ قال كعب : فركبت حتى أتيت المدينة فإذا تال يقرأ القرآن يقول { يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا

مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها } فبادرت الماء فاغتسلت وإني لأمس وجهي مخافة أن أطمس ثم أسلمت وقوله { أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت } يعني الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد وقد مسخوا قردة وخنازير وسيأتي بسط قصتهم في سورة الأعراف وقوله { وكان أمر ا مفعولا } أي إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يمانع ثم أخبر تعالى أنه { لا يغفر أن يشرك به } أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به { ويغفر ما دون ذلك } أي من الذنوب { لمن يشاء } أي من عباده وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الاية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر : .

(الحديث الأول) قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون حدثنا صدقة بن موسى حدثنا أبو عمران الجوني عن يزيد بن بابنوس عن عائشة قالت : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [الدواوين عند ا ثلاثة : ديوان لا يعبأ ا به شيئا وديوان لا يترك ا منه شيئا وديوان لا يغفره ا فأما الديوان الذي لا يغفره ا فالشرك با قال ا D : { إن ا لا يغفر أن يشرك به } الاية وقال { إنه من يشرك با فقد حرم ا عليه الجنة } وأما الديوان الذي لا يعبأ ا به شيئا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها فإن ا يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء وأما الديوان الذي لا يترك ا منه شيئا فظلم العباد بعضهم بعضا القصاص لا محالة] تفرد به أحمد .

(الحديث الثاني) قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا أحمد بن مالك حدثنا زائدة بن أبي الرقاد عن زياد النميري عن أنس بن مالك عن النبي صلى ا عليه وسلّم قال [ ] الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفره ا وظلم يغفره ا وظلم لا يتركه ا فأما الظلم الذي لا يغفره ا فالشرك وقال { إن الشرك لظلم عظيم } وأما الظلم الذي يغفره ا فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم وأما الظلم الذي لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدين لبعضهم من بعض [.

(الحديث الثالث) قال الإمام أحمد : حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ثور بن يزيد عن أبي عون عن أبي إدريس قال : سمعت معاوية يقول : سمعت رسول ا صلى ا عليه وسلّم يقول] كل ذنب عسى ا أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا [ورواه النسائي عن محمد بن مثنى عن صفوان بن عيسى به .

(الحديث الرابع) قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عبد الحميد حدثنا شهر حدثنا ابن غنم أن أبا ذر حدثه عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال] إن ا يقول : يا عبدي ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان منك يا عبدي إنك إن لقيتني بقراب الأرض خطيئة ما لم تشرك بي لقيتك بقرابها مغفرة [تفرد به أحمد من هذا الوجه .

(الحديث الخامس) قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد حدثنا أبي حدثنا حسين عن ابن

بريدة أن يحيى بن يعمر حدثه أن أبا الأسود الديلي حدثه أن أبا ذر حدثه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال] ما من عبد قال : لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق ثلاثا ثم قال في الرابعة : على رغم أنف أبي ذر [قال : فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول : وإن رغم أنف أبي ذر وكان أبو ذر يحدث بهذا ويقول : وإن رغم أنف أبي ذر أخرجاه من حديث حسين به .

(طريق أخرى) لحديث أبي ذر قال أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر قال : كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلّم في حرة المدينة عشاء ونحن ننظر إلى أحد فقال] يا أبا ذر [قلت : لبيك يا رسول الله قال :] ما أحب أن لي أحدا ذاك عندي ذهبا أمسي ثالثة وعندي منه دينار إلا دينارا أرصده يعني لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا [وحثا عن يمينه وبين يديه وعن يساره قال : ثم مشينا فقال] يا أبا ذر إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا [فحثا عن يمينه ومن بين يديه وعن يساره قال : ثم مشينا فقال] يا أبا ذر كما أنت حتى آتيك [قال : فانطلق حتى توارى عني قال : فسمعت لغطا فقلت : لعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم عرض له قال : فهممت أن أتبعه ثم ذكرت قوله : لا تبرح حتى آتيك فانتظرته حتى جاء فذكرت له الذي سمعت فقال] ذاك جبريل أتاني فقال : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة [قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال :] وإن زنى وإن سرق [أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش به وقد رواه البخاري ومسلم أيضا كلاهما عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن عبد العزيز بن رفيع عن زيد بن وهب عن أبي ذر قال : خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلّم يمشي وحده ليس معه إنسان قال : فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد قال : فجعلت أمشي في ظل القمر فالتفت فرآني فقال] من هذا ؟ [فقلت : أبو ذر جعلني الله فداك قال] يا أبا ذر تعال [قال : فمشيت معه ساعة فقال] إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيرا فنفخ فيه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا [قال فمشيت معه ساعة فقال لي] إجلس ههنا [فأجلسني في قاع حوله حجارة فقال لي] إجلس ههنا حتى أرجع إليك [قال : فانطلق في الحرة حتى لا أراه فلبث عني فأطال اللبث ثم إني سمعته وهو مقبل وهو يقول] وإن زنى وإن سرق [قال : فلما جاء لم أصبر حتى قلت : يا نبي الله جعلني الله فداك من تكلم في جانب الحرة ما سمعت أحدا يرجع إليك شيئا قال] ذاك جبريل عرض لي من جانب الحرة فقال : بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة : قلت : يا جبريل وإن سرق وإن زنى قال : نعم قلت : وإن سرق وإن زنى قال : نعم : قلت : وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم وإن شرب الخمر [.

(الحديث السادس) قال عبد بن حميد في مسنده : حدثنا عبيد ا بن موسى عن ابن أبي ليلى عن أبي الزبير عن جابر قال : جاء رجل إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال : يا رسول ا ما الموجبتان قال :] من مات لا يشرك با شيئا وجبت له الجنة ومن مات يشرك با شيئا وجبت له النار [وذكر تمام الحديث تفرد به من هذا الوجه .

(طريق أخرى) قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا الحسن بن عمرو بن خلاد الحراني حدثنا منصور بن إسماعيل القرشي حدثنا موسى بن عبيدة الربذي أخبرني عبد ا بن عبيدة عن جابر بن عبد ا قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم] ما من نفس تموت لا تشرك با شيئا إلا حلت لها المغفرة إن شاء ا عذبها وإن شاء غفر لها { إن ا لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء } ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده من حديث موسى بن عبيدة عن أخيه عبد ا بن عبيدة عن جابر : أن النبي صلى ا عليه وسلّم قال [لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب] قيل : يا نبي ا وما الحجاب ؟ قال [الإشراك با ـ قال ـ ما من نفس تلقى ا لا تشرك به شيئا إلا حلت لها المغفرة من ا تعالى إن يشاء أن يعذبها وإن يشاء أن يغفر لها] ثم قرأ نبي ا { إن ا لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء } .

(الحديث السابع) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم حدثنا زكريا عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [من مات لا يشرك با شيئا دخل الجنة] تفرد به من هذا الوجه .

(الحديث الثامن) قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو قبيل عن عبد ا بن ناشر من بني سريع قال : سمعت أبارهم قاص أهل الشام يقول : سمعت أبا أيوب الأنصاري يقول : إن رسول ا A خرج ذات يوم إليهم فقال لهم : إن ربكم D خيرني بين سبعين ألفا يدخلون الجنة عفوا بغير حساب وبين الخبيئة عنده لأمتي فقال له بعض أصحابه : يا رسول ا أيخبأ ذلك ربك ؟ فدخل رسول ا A ثم خرج وهو يكبر فقال [إن ربي زادني مع كل ألف سبعين ألفا والخبيئة عنده] قال أبو رهم : يا أبا أيوب : وما تظن خبيئة رسول ا A فأكله الناس بأفواههم فقالوا : وما أنت وخبيئة رسول ا A ؟ فقال أبو أيوب : دعوا الرجل عنكم أخبركم عن خبيئة رسول ا A كما أظن بل كالمستيقن إن خبيئة رسول ا A أن يقول [من شهد أن لا إله إلا ا وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله مصدقا لسانه قلبه أدخله الجنة] .

(الحديث التاسع) قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا المؤمل بن الفضل الحراني حدثنا عيسى بن يونس (ح) وأخبرنا هاشم بن القاسم الحراني فيما كتب إلي قال : حدثنا عيسى بن يونس نفسه عن واصل بن السائب الرقاشي عن أبي سورة ابن أخي أبي أيوب الأنصاري عن أبي أيوب قال : جاء رجل إلى النبي A فقال : إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام قال [وما دينه

؟] قال : يصلي ويوحد ا تعالى قال [استوهب منه دينه فإن أبى فابتعه منه] فطلب الرجل ذاك منه فأبى عليه فأتى النبي A فأخبره فقال [وجدته شحيحا في دينه] قال : فنزلت { إن ا لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء } .

(الحديث العاشر) قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا عمرو بن الضحاك حدثنا أبي حدثنا مستور أبو همام الهنائي حدثنا ثابت عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول ا A فقال : يا رسول ا ما تركت حاجة ولا ذا حاجة إلا قد أتيت قال [أليس تشهد أن لا إله إلا ا وأن محمدا رسول ا ؟] ثلاث مرات ؟ قال : نعم قال [فإن ذلك يأتي على ذلك كله] .

(الحديث الحادي عشر) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر حدثنا عكرمة بن عمار عن ضمضم بن جوش اليمامي قال : قال لي أبو هريرة : يا يمامي لا تقولن لرجل : وا لا يغفر ا لك أو لا يدخلك الجنة أبدا قلت : يا أبا هريرة إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب قال : لا تقلها فإني سمعت رسول ا A يقول [كان في بني إسرائيل رجلان : كان أحدهما مجتهدا في العبادة وكان الاخر مسرفا على نفسه وكانا متآخيين وكان المجتهد لا يزال يرى الاخر على ذنب فيقول : يا هذا أقصر فيقول : خلني وربي أبعثت علي رقيبا قال : إلى أن رآه يوما على ذنب استعظمه فقال له : ويحك أقصر ! قال : خلني وربي أبعثت علي رقيبا ؟ فقال وا لا يغفر ا لك أو لا يدخلك ا الجنة أبدا قال : فبعث ا إليهما ملكا فقبض أرواحهما واجتمعا عنده فقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للاخر : أكنت عالما أكنت على ما في يدي قادرا ؟ اذهبوا به إلى النار : قال : فوالذي نفس أبي القاسم بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته] ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار حدثني ضمضم بن جوش به .

(الحديث الثاني عشر) قال الطبراني : حدثنا أبو شيخ عن محمد بن الحسن بن عجلان الأصبهاني حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس عن رسول ا A قال : قال ا D : [من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئا] .

(الحديث الثالث عشر) قال الحافظ أبو بكر البزار والحافظ أبو يعلى : حدثنا هدبة بن خالد حدثنا سهل بن أبي حازم عن ثابت عن أنس قال : قال رسول ا A [من وعده ا على عمل ثوابا فهو منجزه له ومن توعده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار] تفردا به وقال ابن أبي حاتم : حدثنا بحر بن نصر الخولاني حدثنا خالد يعني ابن عبد الرحمن الخراساني حدثنا الهيثم بن حماد عن سلام بن أبي مطيع عن بكر بن عبد ا المزني عن ابن عمر قال : كنا أصحاب النبي A لا نشك في قاتل النفس وآكل مال اليتيم وقاذف المحصنات وشاهد الزور حتى نزلت هذه الاية { إن ا لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء } فأمسك أصحاب

النبي A عن الشهادة ورواه ابن جرير من حديث الهيثم بن حماد به وقال ابن أبي حاتم أيضا : حدثنا عبد الملك بن أبي عبد الرحمن المقري حدثنا عبد ا بن عاصم حدثنا صالح يعني المري حدثنا أبو بشر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : كنا لا نشك فيمن أوجب ا له النار في الكتاب حتى نزلت علينا هذه الاية { إن ا لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء } قال : فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى ا D وقال البزار : حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا شيبان بن أبي شيبة حدثنا حرب بن سريج عن أيوب عن نافع عن ابن عمر : قال : كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبينا A يقول { إن ا لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء } وقال : [أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة] وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع أخبرني مجبر عن عبد ا بن عمر أنه قال : لما نزلت { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة ا } إلى آخر الاية قام رجل فقال : والشرك با يا نبي ا ؟ فكره ذلك رسول ا A فقال : { إن ا لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك با فقد افترى إثما عظيما } رواه ابن جرير وقد رواه ابن مردويه من طرق عن ابن عمر وهذه الاية التي في سورة تنزيل مشروطة بالتوبة فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه تاب ا عليه ولهذا قال { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة ا إن ا يغفر الذنوب جميعا } أي بشرط التوبة ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه ولا يصح ذلك لأنه تعالى قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء أي : وإن لم يتب صاحبه فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه وا أعلم وقوله { ومن يشرك با فقد افترى إثما عظيما } كقوله { إن الشرك لظلم عظيم } وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : قلت : يا رسول ا أي الذنب أعظم ؟ قال : [أن تجعل ندا وهو خلقك] وذكر تمام الحديث وقال ابن مردويه : حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد حدثنا أحمد بن عمرو حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا معن حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين : أن رسول ا A قال [أخبركم بأكبر الكبائر الشرك با] ثم قرأ { ومن يشرك با فقد افترى إثما عظيما } وعقوق الوالدين ثم قرأ { أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير }